ظاهرة الأدب المكشوف في كتب التراث

د. محمد رجب البيومي

الأدب في أبسط تعريف، هو التعبير الجميل عن الخاطر النبيل، والخاطر النبيل لن ينحط إلى إسفاف مبتذل، لأن لكل إنسان مطامحَه التي ترتفع به إلى السموّ، والآثمُ حين يقارف الخطيئة لا يخلو من وخزاتٍ نفسيّة تعّاوده ، لأنّه في قرارة نفسه يعترفُ بجرمه، والعربيُّ القديم في صحرائه الممتدة، وقراه المتباعدة كان يرتفع بنفسه عن التبذل، فلديه مجموعةٌ من الأخلاق الفاضلة تأمُره بالنجدة والكرم والشجاعة والعفاف، ومن هنا لم نجد في الشعر الجاهليّ أثراً للغزل بالمذكر، لأن الطبيعة الفطرية للإنسان السوّي تنأى به عن الانحدار، وقد كذب أبو نواس حين قال:

لوَ أنّ مرقّشاً حيٌّ   تعلّق قلبه ذَكَراً

فالمرقِّشُ الجاهلي شاعرٌ عفّ، ينحو منحى العذريين، سواء كان الأكبر أم الأصغر، فقد عشق المرقشُ الأكبر البكري أسماءَ بنت عوف ابنَة عمه مذ كان صغيراً، وخطبها إلى عمّه فاشترط عليه شروطاً مجحفة كلّفته أن يغادر العشيرة ليعود ثرياً ذا جاه، ثم خاب مأمله حين آب ليجد أسماء قد تزوجت في قبيلة مراد، وهام على وجهه -في قصّة طويلة- ليراها، ثم أدركه الموت مجروحاً، فالعاشقُ الذي مات غراماً بفتاة لم يستطع أن يحنّ إلى سواها ممن يشاركنْها الجمال والشباب، وما أكثرهنّ في باديته.

لا يقال إنه سيتعلق ذكراً إذا رآه! أما المرقش الأصغر فقد امتدت مطامعهُ حتى عشق فاطمة بنت المنذر الملك، ولم يُوفَقْ إلى الاقتران بها فمات متحسّراً، وهو الذي يقول:

صحا قلبُه عنها على أن ذِكرةً   إذا خطرتْ دارت به الأرض قائماً

وإذن فقول أبي نواس ضربٌ من مجونه المشتَهر، ونحن إذا طالعْنا ما أُثر لدى شعراء الجاهلية والمخضرمين من غزل، نجدُ أكثرَه عفيفاً، ينزع إلى المروءة، ويطمح للشرف والطهر، ولدينا قصائد عنترة، وعبدِالله بن علقمة، وعروةَ بن حزام صاحبِ عفراء، وعبدِالله بن العجلان، ومسافرِ ابن عمرو بن أميّة، وجَحْدرِ بن ضبيعة، وعدِي بن زيد، وكلُّهم قد أحبّ فما نطق بالعوراء، مما يدل على براءةِ السريرة، وصفاء الطويّة، والإباحيّون على نُدرتهم من أمثال امرىء القيس لم يكونوا ذَوِي إلحاح متكرّر، بل يُسفّون قليلاً قليلاً، ويعتدلُ بهم الطريق، وهمُ في إسفافهم الشائن يتحرزون من المكاشفَةِ الصريحة فيؤثرون التلميح، كما قال أحدهم.

ألا زعمتْ بَسباسةُ اليوم أنني   كبرتُ وألا يُحسن السرّ أمثالي

فقد اكتفى بكلمة (السرّ) دون أن يُفحش، وهي لعهده تعبيرٌ كنائي لا حقيقي:

وأذكر بهذه المناسبة أن سلامة موسى كان قد ذكَر في مقالٍ له أن العربي في صحرائه قد ألف رؤية الحيوانات حين تتناسَل، فدعاه ذلك إلى الإفحاش في القولِ والعمل، كما أنّ احتجاب المرأة قَذَف به إلى الغزل بالمذكر، وهو قَوْلُ مَنْ لم يَدْرُسِ الأدب العربي، وتاريخَ العرب معاً، وقد فنّدهُ الأستاذ عباس محمود العقاد فأكّد أنّ العربيّ لم يعرف الإفحاش في القولِ والعمل قبلَ أن تختلط الأنساب ويكثُر الهجين، وأنَّ الغزل بالمذكر قد شاعَ في العصر العباسي الذي كانت تزدحمُ به بيوتُ النخاسين، ومجالسُ القصور بمشات الجواري، وإذن فوالبةُ ومطيعُ بن إياس، وأبو نواس ومن تَغَزلوا بالمذكر لم يكونوا محرومين من المرأة، أما العجيبةُ أيضاً فهي أن يرى سلامة موسى عشرات الأدباء في أوربا مصابينَ بالشذوذ الجنسي مثل أوسكار دايلد ومَن على شاكلته، وجميعهم يُخالطون المرأة في عهد السفور، ثم يزعم أنّ احتجاب المرأة قد أوجدَ مثل أبي نواس: أليس هذا جهلاً بالماضي والحاضر معاً!!

فإذا انتقلنا إلى العصر الأموي، وهو عصرٌ سيطرت فيه القصيدة الشعريّة بحيث تضاءلتْ جوارها الفنون الأخرى، فإننا نجدُ تيّارَيْن مختلفين، تيارٌ يمثّله أصحابُ النقائض، وهو مما ينحدرُ في أحيان كثيرة إلى الإسفاف والتبذل، وتيارٌ يُمثِله العذريّون من أمثال جميل وقيس وكثير وأضرابهم، ممّن اكتووْا في سعير الشوق فَنَضَحتْ أشعارهم بأعذب آيات الوجدان العفيف، ومن سوءِ حظ الدارسين لهذا العصر، أنّهم احتفلوا بشعر النقائض أكثر مما يستحقّ، فأفردت له الدراسات، وعُدّ أعلامه في مقدمة المبدعين. ونحن لا ننكر مكانة جرير أو الفرزدق أو الأخطل. ولكننا لا نُنكر أنهم كانوا يتقاذَفُون بالأوضار، بل كانوا يختلقون المثالب الندية لتُضاف إلى الأجداد تفْخيماً واستبْشاعاً، هذا اللون المنحدر من الأدب الأمويّ قد وَجد لدى المستشرقين في جامعاتِ الغرب مَن يحتشدُ لذيوعه وتحليله . وكأنّه الطابعُ العامّ للأدب العربي في هذا العصر وماذا يقولُ معارضهم، وهو يعرف أن جريراً والفرزدق والأخطل من أعلام

الشعر ! إنه ينتهي حتماً إلى النتيجة التي حرص هؤلاء المستشرقون على ترسيخها في الأذهان، وهي أنّ الشعر العربي يهبطُ بقارئه لهبوط قائله، وهبوطٍ من احتفلوا في مجالسِ الخلفاء ونَدوات الأمراء، ومجموعات الشعر، على حين قد غَفلتْ أو كادتْ هذه الدراسات عن التيار الشريف الذي أوْجده العذريون.

ولقد ضاعف من ازدهارِ شعر النقائض أن جامعي اللغة العربية من شيوخ العلم قد وجدوا في هذا الشعر، وبخاصة لدى الفرزدق ما سَدَّ حاجتهم في اصطياد الغريب والاحتفاء به، على حين كان الشعرُ العذري غير مؤهل في أكثر مقطوعاته لملء هذا الفراغ، مع استثناءِ ذي الرمة الذي احتفلَ به اللّغويون، لا لما قال في الحنين إلى ميّ وخرقاء، بل لما وصف من عورة الصحراء واصطياد حمر الوحش، ولا علينا بعد ذلك كلّه أن نقولَ إنّ الشعر العربي في مجموعه قبل العصر العباسيّ كان بريئاً من الإسفاف، وأقول في مجموعه لنُخرج أمثال النقائض، وبعض الغزل الحسّي المنسوب إلى مدرسة عمر بن أبي ربيعة ومن انتحى منحاه...

هذا بعضُ حديث الشعر، نتركُه برهة لنرى مبدأ التأليف الأدبي في فاتحة العصر العباسي تقريباً لا تحديداً لأنّ مثل ابن المقفع لم يظهر فجأةً في مفتتح عهد بني العباس، ولكنه زاولَ أمورَ الفكر منذُ شبّ يافعاً، وأُتيح له أن يكونَ رأساً من رؤوس البيان بما كَتب وترجم، وبين أيدينا من آثارِه الشاهدة كتابُ الأدبِ الصغير وكتابُ الأدب الكبير، وما ترجمه من صفحاتٍ كليلة ودمنة. وكلها تنطقُ بالتزامه الخلقيّ. وارتفاعِه إلى مستوى عالٍ، يجعلُ صاحبَ القلم حكيماً ذا رسالة. وفي الناس من يُصدّقون مزاعَم مُفتراة أُلصِقتْ به إلصاقاً، دُون أن نَجد لها صدىً فيما كتب، مع أن ما بقي من آثارِه هو الوثيقةُ التي تَنْطق باتجاهه، ولا ننسى أن الرجل قد قُتِل مظلوماً، وإنْ وافق السّنَن الأرفع من مذاهب الوفاء والإخلاص، ومثلُ هذا الصريع لا بدَّ أن يفترى عليه تزلّفاً للقاتل، ولعلَّ أعظم هذه المفتريات ما نُسب إليه من الزندقة، والولوع بمجالس الشراب، والأستاذ الكبير محمد كرد علي في الجزء الأول من أمراء البيان [1] يرى أنّ هذا من أكاذيب صاحب الأغاني؛ لأنه كان مولعاً بتنقصّ الناس، وبرمي الحكماء بالتحلّل، كي لا يُعاب عليه ما انغمس فيه من ملذّات!

نقولُ إن آثارَ ابن المقفع الأدبية قد جانبت الرجسّ، وسمت عن التبذّل، ولو قُدّر لمذهبه الخلقي أن يشيعَ فيما وليه من المؤلفات لكان التراثُ الأدبي مثلاً عليا للسلوكِ الإنساني، ولكنّ الذي تولى زعامةَ النثر الأدبي من بعده هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ولا يعدلُ الجاحظ كاتبٌ من معاصريه في سطوةِ بيانه، وتدفق أفكاره، وخَوضِه في كلِ مذهب ووقوفِه موقفَ المحامي الذي يتخذُ قضيّةً ما عادلةً أو ظالمةً، ليُنافح عنها ببراهينه الدامغة، وليجدَ من ألمعيته الفائقة أدلةً تُؤيّدُ الباطل في موضع، وتنصرُ الحق في مواضع، وكان مما ارتاح له كلَّ الارتياح أن يتحدّث عن الخلاعةِ والخلعاء، وأن يرى في الحديث العابث تنشيطاً للذهن، ووسيلةً للترفيه، فملأ كتبه وبخاصةٍ أجزاءَ الحيوان، ورسائله المتداولة بما كان في حلٍ من تجنبُّه؛ لأنّه لا يعود لقارئه بغير الارتكاس، ومحاولةُ الترفيه لا تتأتّى من الولوع بتسطيرِ أخبار الساقطين والساقطات، وذكرِ المستور من العورات، وكشفِ الدفين من القبائح، ولكنّها تكون بالنادرةِ الطريفة، والفكاهة اللطيفة، التي يَبتَسمُ لها الثغر دونَ أن يندى لها الجبين، وقد أحسَّ الكاتبُ الكبير أنّه يسيرُ في طريق لا يجد الترحيب ممّن يحرصون على سلامة العقول، وارتقاء النفوس، فجعَل يُدافع عن منحاه في مواقف شتى بين صحائف كتبه، ونستشهد هنا بما يُستطاع ذكره من رسالة (المفاخرة بين الجواري والغلمان) وهي رسالةٌ ذاتُ موضوع كان يجبُ على صاحب الرسالة الأدبية الرائدةِ أن يتحرّزَ عنه، لأنّنا إذا قبلنا أن نسمع حديث الجواري لا نقبلُ أن نجدَ من يُدافع عن اصطحابِ

الشعر العربي قبل العصر العباسي كان في مجمله بريئاً من الإسفاف والنقائض

الغلمان، ويُحاول أن يسطرَّ لهم من المحاسن ما يجعلُهم موضعَ الرَّغْبة، فالموازنة بين هذيْن مما يجب أن يترفّعَ عنه ذُو رسالة هادفة، وهلِ الأدب في صميمه إلا رسالةُ السمو ومعراج الارتقاء، فموضوعُ الرسالة هابطٌ هابطٌ مهما تمحّل له الكاتب من الأعذار كأن يقول[2] ص٩٥ .

«وكنّا لما ذكرنا اختصامَ الشتاء والصيف، واحتجاجَ أحدهما على صاحبه، واحتجاجَ صاحب المَعزِ والضأن بمثل ذلك أحْببنَا أن نذكُرَ ما جرى بين اللاّطة والزُّناة، وذكرنَا ما نَقل حُمّال الآثار وَرَوتْه الرواةُ من الأشعار وإنْ كان في بعض البِطالات».

محاسن ولكن:

والقياسُ لعمري مع الفارق، والفارقِ الشديد، لأنّ الذي يوازن بين الصيف والشتاء يسير في طريق مأموم، فسيانِ أن يكونَ الغلبُ لزمانِ الصيف أو زمانِ الشتاء، وكلاهما ممّا يُطاق ويحتمل، وكذلك لا ضيرَ في أن نُفضّل لحمَ المعز على لحم الضأن أو نفضّل لحم الضأن على لحم المعز، كما عقد الموازنة في ذلك الجاحظ في كتاب الحيوان، ولكن الرجس كل الرجس، أن تُوازن بين اللاّطة والزناة، فجعل لهؤلاء وأولئك محاسن ومقابح، ثم تكرّ على المقابح والمحاسن معاً بما يفتح سبيل الغواية للناس، وقد ابتدأ أبو عثمان رسالة بقول رواه عن الشعبي حين قال: إن

القلوب تملُّ كما تملُّ الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكمة» وقولُ الشعبي حق لا مريَة فيه، ولكنْ ما هذه الطرائفُ التي عناها الشعبي؟ إنها لن تكونَ بما والاهُ الجاحظ بعد ذلك من حديث عن الألفاظ الجنسيّة وقد ذَكرها صراحةً مفنّداً مذهبَ من يتحفظ في سردها، ثم ينقلُ بعض الرفثِ الكاذِب المنسوبِ لأمثال علي بن أبي طالب، وأبي بكر الصديق، وعبد الله ابن عباس وحمزةَ بن عبد المطلب، وهي عباراتٌ مبتورة لعلَّ بعضها -إن صحَّ- قد قيل في ساعةٍ من ساعات الغضب حين يَخرج الحليم عن حُلمه فيقولُ ما يأسَفُ له بعد أن صَدرَ في توتّر نفسي! ويضيفُ إلى هؤلاء الكرام قولاً يُنسب إلى من يُسمّى بأبي الزناد، وهو قولٌ منحدر لا يجوزُ أن يقوله شيخ كبيرٌ لابن أخيه الصغير، ولنفرضْ أن هذا الشَيخ -وأمثالُه كثيرون- قد تنزّلوا إلى هذا الهراء السّافل فما جدَوى روايته؟ وكيف يُلحق شيخ من هذا الطراز بأسماءٍ كريمة لأعلام من صحابة رسول الله! أليسَ ذلك خداعاً للقارىء. يجّل عنه أديب كبيراً إنّ رسالة المُفاخرة بين الغلمان

الإثم يتأتىٰ من شتم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالباطل

والجواري وأمثالَها مما تردّ في كتب الجاحظ لا تُنقص مكانته الأدبية في شيء لو ترفّع عن تسطيرها، فله صُحفٌ خوالد في جِدّ الأمور، وفي هزلها العفيف المحتمل، فلماذا التردّي في أعمق الأعماق من مآزق المنكرات.؟!

ولدينا المثل الحيّ من مؤلفات الجاحظ، وهو كتاب البخلاء إذ رأتْ وزارة المعارف المصرية في سنة ١٩٣٧م أن يكون من بين مُطالعات التلاميذ في المدارس الثانوية لذلك العهد، فعهِدت إلى الأستاذينْ الكبيرين أحمد العوامري وعلي الجارم أن يقوما على نشره وتحقيقه، فاحتفلا بالكتاب أكرم احتفال وأخرجاهُ مشروحاً مضبوطاً على نحو يُيّسر العسير، ويُسهّل الصعب، ثم رأيا كما ذَكرا في المقدمة أن يَحذفا من الإلفاظ ما عسى أن يمسَّ الحياء[٣]، وهو قليلٌ في جملته، لأنّ الكتاب سيقع في أيدي المراهقين، ولا بدّ أن يرتفعَ بهم بَدَلَ أن يهبط، وحَسَنٌ ما فعلوا، دون أن يَخسرّ الجاحظُ شيئاً، ولكنّ الأستاذ الدكتور طه الحاجري رحمه الله، قد حقّق الكتاب في إخراج جديد، وحَرَصَ على أن يَذكر كلَّ ما كتبه الجاحظ دون حذف! وبالمقارنة المنصفة لا أجدُ طبعةَ وزارة المعارف قد مَنعتْ خيراً ما عنْ قارئها، وإذ التزمَ الدكتور الحاجري بالنّص، وقام بالتحقيق الجيّد، فإنه من ناحية ثانية قد قدّم الدليل على أن الحذفَ السابق لم يُنقص الأثر الأدبيّ في شيء، وإذا كان الأمر كذلك، فأنا أحبّذ منحى الطبعة الوزارية، وحبّذا لو حرص المحققون على احتذائها فهمْ أساتذةُ أخلاق قبل أن يكونوا محققي تُراث!

وتأخذني الحيرة إذا انتقلتُ من الجاحظ إلى ابن قتيبة، فقد كان خصماً لدوداً للجاحظ مع أنه تلميذه، وقد شنّع عليه بأنه يرْوي المعابث والأضاحيك ويسفّ فيما يختار، وكان المنطق الطبيعي لهذا التشنيع ألا يَحْذُوَ حذوه في إيثار المكشوف من القول ولكنّه نهج نهجَهُ في بعض ما ألّف من كتب الأدب والأخبار فهو يقول في مقدمة (عيون الأخبار)[٤]:

إثم كبير:

«وإذا مرّ بك حديثٌ فيه إيضاح بذكر عورةٍ أو فرج أو وصفِ فاحشة فلا يحملنّك الخشوع على أن تصّعر خدّك، وتُعرِضَ بوجهك، فإن أسماءَ الأعضاء لا تُؤثّم، وإنما المأثمُ في شتم الأعراض وقولِ الزور والكذب، وأكلِ لحوم الناس بالغيب... ثم قال: ولم أترخّص لك في إرسال اللسانِ بالرفَث أن تجعلَه هجيراك على كل حال، وديدنك في كل مقال، بل الترخصُ مني في حكايةِ تحكيها، أو روايةِ ترويها، تُنْقِصها الكنَاية، ويذهب بِحلاوتها التعريض، وأحببتُ أن تجري في القليل من هذا على عادةِ السلف الصالح في إرسالِ النفس على السجيّة، والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنّع».

فماذا عسى أن نقول في هذا العالم المتحرّز، وهو من أهل السنةِ بمنزلة الجاحظ من أهل الاعتزال أنقولُ له: إن أدبَ القرآن ونهج السنة المطهرة غير ما ذكرت، فكتابُ الله عز وجل يلجأ إلى الكناية لا إلى التصريح، حين يتعرّض إلى أدقّ الأمور المستترة فيقولُ ﴿**هو الذي خلقكم من نفس واحدة، وجعلَ منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشّاها حملتْ حملاً خفيفاً فمرت به**﴾[٥] ويقول: ﴿**أُحل لكم ليلة الصيام الرفثُ إلى نسائكم، هن لباس لكم وأنتم لباس لهنّ، علم الله أنكم أنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم، فالآن باشروهُن وابتغوا ما كتب الله لكم**»[٦]، وأحاديثُ الرسول تنحو منحى الكناية دون التصريح كأن يقوَل حتى تذُوقى عُسيلته، وما يجري هذا المجرى وإذا كنا معك في أن المأثَم في شتم الأعراض، وقولِ الزور والكذب وأكلِ لحومِ الناس بالغيب فإنها أيضاً تكونُ في الحديث عن السوءاتِ بما يفتحُ العيون النائمة، وينبّهُ الأذهان الغافلة، ثمّ مَنِ السلفُ الصالح الذين يذكرون العوراتِ في كتب يتداولُها الناس؟ إن كان المرادُ بالسلف رجالَ الصدر الأول فهم لم يكونُوا في عهد التأليف، حتّى يُدوّنوا من المنديات ما تَخْزَى له الأجيال ، فكيف نستشهد بهم في هذا المجال، ونقوُل إننا نجري في القليل مما نذكر على عادة هؤلاء في إرسال النفس على السجيّة والرغبة عن الرياء والتصنّع:

لقد وجد ابنُ قُتيبة من كتاب العصر من أيدّه في منحاه، ودافعَ عنه، لا لشيءٍ إلا لأنّ أدباء الغرب في عصرنا الراهن قد عَانَوْه في كُتبهم، وما عَبَؤوا بمصطلحات قومهم، ذلك هو الأستاذ الكبير محمد كرد علي

عندما أسرف الأصبهاني في اللذات والشهوات واحتفل بالجوانب الضعيفة في أخلاق الشخصيات

حين نقلَ قولَ ابن قتيبة بصددِ حديثه عن صراحةِ الجاحظ مؤيِّداً، وزادَ فذكر في تأييد دعواه[٧] قولَ القِدّيس كليمان من أدباء المسيحيّة: «أنا لا أخجلُ من الكلام عن الأعضاء التي يُخلَق بها الإنسان لأنّ الله لم يخجلْ إذ خلَقها» وقول «مونتين» وهو في رأي الأستاذ محمد كرد علي من أعظم من اشتُهروا بالفضائل من المؤلّفين الفرنسيين: «ماذا كانَ عملُ الفعلِ التناسلي في الناس وهو طبيعيّ وضروري حتّى شجبوه وابتعدُوا عن ذكره، فتراهم لا يَجسُرُون على الكلام عنه إلا بشيءٍ من الخجل، ويبتعدونَ عنه في أحاديثهم، يا للعفةِ المكذوبة، ويا للنفاق المخجل»اهـ.

والفعْل التناسليّ قد وجد تحليلَه العلميّ لدى علماء الطب والتشريح، وليس بمستنكَر حينئذ، ولا بمستبعد، وإنما المستَنكَرُ أن يكونَ مثاراً للفتنة حين نذكُره في كتب اللهو، والذين يَخجلونَ من ذلك يَحسون في أعماقهم أن من الأشياء ما يجب أن يَستتر، وَهَلْ يجوز للمرء أن يقضي حاجَته الضروريّة أمامَ الناس لأنها أمرٌ طبيعي، إذا استساغَ ذلك مَن يَعدُّون قولَ الرفث شيئاً طبيعيّاً، فلهم أذواقُهم المنحرفة، واتجاهُهم المريض.

ظهرَ أنا نَميل إلى حذف الماجن الخليع مما دُوّن في كتب التراث، ولنْ يفقد التراث بهذا الحذف شيئاً ذا بال، وعندنا مثلاً ديوان الحماسة الذي جمعه أبو تمام، فهو من رائع المأثور من الشعر، وقد احْصَيْتُ ما به من الهجو العابث فلم يزدْ عن بضعةِ أبياتٍ جاءتْ في باب الهجو وفي بابِ مذمة النساء، فهل إذا خلا ديوان الحماسة من مقطوعةٍ أو مقطوعتين، تقومُ القيامة، ويصيحُ الصائحون، هذا غبنٌ للمؤلف هذا عَبثٌ بالتراث؟

ولرب سائلٍ يسألُ فيقول: هذا عن ديوان الحماسة؟ فما ظنُّك بكتابٍ كالأغاني جاوزتْ أجزاؤهُ العشرين وفي كلّ جزء صفحاتٌ ماجنةٌ ذاتُ عدد وفيرا أنحذفُ كلَّ ما يتعلّق بالمجون؟ أم ننشرهُ كما كتبه مؤلّفه؟

مجون كبير:

هذا السؤال المنطقيُّ قد دار في أذهانِ الكثيرين قديماً وحديثاً، أمّا في القديم فكانت الإجابةُ عنه اختصارَ الكتابِ على نحو ما فعل ابنُ منظور، وابنُ واصل في كتابيْهما اللذينْ اختصرا عمل أبي الفرج! وغيرُ ابن منظور وابنُ واصل قد حاوَل محاولتهما في مخطوطاتٍ لم تَرَ النور بعدُ ولم نَعْرف غير اسمائها، وهذا التزاحُم على اختصارِ الكتاب له ما يُبرّره عند المختَصرين، وهو مع ذلك لم يُطفىء بريق الكتاب الأوّل، إذ تعدّدتْ طبعاته، وأقبل عليه الدارسون شرقاً وغرباً وَوُضعتْ عنه الرسائل الجامعيّة، تُوضّح مرماه، وتزنُ أحكامه، وتقولُ ما له وما عليه؟ وقد انهتْ هذه أحكاماً صائبة تضعُ أبا الفرج موضعَه الصحيح، وقد استطاعَ الدكتور زكي مبارك أن يُوجز هذه الأحكام في فصلٍ قيم كتبهُ في مؤلّفه الذائع عن النثر الفني في القرن الرابع، وفيه يقول[٨]:

«كانَ الأصبهانيُّ مسرفاً أشنع الإسراف في اللذات والشهوات، وقد كانَ لهذا الجانبِ من تكوينه الخلقي أثرٌ ظاهرٌ في كتابه، فإن كتابَ الأغاني أحفلُ كتابٍ بالخلاعة والمجون، وهو حينَ يَعْرض للكُتّاب والشعراء يهتمّ بسردِ الجوانب الضّعيفة من أخلاقهم الشخصيّة ويهمل الجوانب الجدّية إهمالاً ظاهراً، يدلُّ على أنه قليلُ العناية بتدوين أخبار الجدّ والرزانة والتجمّل والاعتدال، وهذه الناحيةُ من الأصبهاني أفسدتْ كثيراً من آراء المؤلّفين الذين اعتمدُوا عليه، ونظرةٌ فيما كتبه جورجي زيدان في كتابه «تاريخ آداب اللّغة العربية»، وما كتبه الدكتور طه حسين في «حديث الأربعاء» تكْفي للاقتناع بأنّ الاعتماد على كتاب الأغاني وحدهُ جَرَّ هذين الباحثين إلى الحطّ من أخلاق الجماهير في عصر الدولة العباسيّة، وحَملهما على الحُكم بأنّ ذلك العصر كانَ عصرَ فسقٍ ومجون ولا أريدُ بهذا أن أحكم بأنّ الأصبهاني كان يتعمّد الاختلاق، أو أنّ الجمهورَ كان في العصر العباسي مغموراً بالطهر والعفاف، كَلاّ، فقد قلتُ غيْر مرّة إنّ الحياة الإنسانية مزيجٌ من الشك واليقين، والحلمِ والجهلِ، والهدى والضلال، وإنّ الإنسان لا يكونُ خيراً محْضاً، ولا شراً محضاً، وإنما بقاؤه في أن تكونَ سرائرُهُ مَسْرحاً لنوازعِ الغي والرشد، ولكنّي أقولُ إن إكثار الأصبهاني من تتبّع سقطاتِ الشعراء وَتَلَمُّسِ هفوات الكُتّاب، جعلَ في كتابِه جوّاً مُشبعاً بأوزارِ الإثم والغواية، وأذاعَ في الناس فكرةً خاطئة هي اقترانُ العبقرية بالنّزق والطيش والخروج على ما أَلِفت الجماهيرُ من رعاية العرف والدين».

هذا بعضُ ما قاله الدكتور زكي مبارك عن كتاب الأغاني، وقد أشارَ إلى ما توَرّط فيه الدكتور طه حسين حين حكمَ على العصرِ العباسي بأنّه عصرُ خلاعة ومجون اعتماداً على رواياتِ الأغاني، وأكثرُها مُفتَعَلٌ مختلق، ومؤرخُو الدراسات النقدية المعاصرةِ يعرفونَ كمْ من الرُّدودِ المُفحِمة وُوجِه بها الدكتور طه حسين من أساتذةٍ كبارٍ يعرفون مصدر الخطأ في أحكامِ الدكتور طه حسين الخاصة بهذا الزّمن من التاريخ العباسيّ، وهو اعتمادُه على كتابِ الأغاني وحدَه، وكأنه تنزيلٌ لا يأتيه الباطل.

ولم يُحاول الدكتورُ الردَ على أكثرِ معارضيه لأنّ لهجةَ النقد لديهم كانتْ ذاتَ حميّةٍ مرتفعةِ الحرارة فرأى أن يُغفِل ما قالوه، ولكنّه اضطر للرد على ما كتَبه المؤرخُ السوريّ الأستاذ رفيق العظم في نقدِ منحاهُ النقدي حين يجعلُ كتابَ الأغاني أثيراً عزيزاً، وشاهداً صادق الدليل، وقد جاء في رد الأستاذ العظم ما يعصفُ باتجاهِ الدكتور مِنْ أمامه، وردُّ الأستاذ منشورٌ بالجزء الثاني من «حديث الأربعاء» وقد أوضَح ما ما اقْترفه الوضّاعون من

اعتماد طه حسين على كتاب الأغاني جعله يقع في أخطاء فادحة لاعتماده على باطل

مآثمَ حين اختلقُوا القصص الكاذبة، ونسبوها للأبرياء، هذه القصصُ التي هي مادةُ الدكتور ، وأساسُ حكمه المجازف، وإذا كانَ أكثرُ هذه القصص مختلقاً لا أساسَ له، فكيف نُصدِر الأحكام الأدبيّة بناءً عليها، وما اعتمدَ على الباطِل باطلٌ لا يقبلُ الخلاف.

مهما يكن من شيء! فقد أصبَح الدّارسون من كتاب الأغاني أمامَ مشكلةٍ تتطلّب الحلّ، وإذا كانَ ابن منظور وابن واصل قد حاولاَ اختصارَه تَجَنُّباً لبعضِ مآزقه، فإن مُؤرّخاً كبيراً هو الأستاذ محمد الخضري رحمه الله، قد فكّر كثيراً حتى اهتدى إلى ضرورة تهذيب الأغاني، فسلخ بضعة عشر عاماً يقرأُ ويستوعب حتى أخرجَ مهذّبَ الأغاني في تسعةِ أجزاء، وتركَ العاشر مخطوطاً غير كامل فَعَمِلَ على إخراجه أحدُ تلاميذه، ومن يعرفُ ورعَ الأستاذ الخضري، وقيامه على تربية النشء في الجامعات والمعاهد والمدارس يُدرك سرَّ اصطباره الطويل على تصحيح ما تورّط فيه المؤلف من ناحية أُولى، وإكمالِ ما يحتاج إلى إكمال من ناحية ثانية، وحذف ما تنفرُ منه الأذواقُ من ناحية ثالثة، وتبويب ما تَشَتّت تحتَ مَجموعٍ متناسق من ناحية رابعة، وقد شَرحَ في مقدّمةِ الجزء الأول من المهذّب ما قامَ به من جُهد في التّرتيب والضبط والإكمالِ والتفسير وتصحيح المُحرَّف، ثم قال في بعض ما قال مما هوُ بصدد موضوعنا هذا ما نصّه: «إن أبا الفرج رحمه الله كان في بيئةٍ سمحتْ له أن يُضمّن كتابه كثيراً من فاحش الحكايات التي تَنْفيها بيئتُنا، ولا تسمحُ بذكرها، فضلاً عن أن تُسطَّر في كتاب، فرأيتُ أن أحذف ما كان من هذا الطراز»[٩].

رحمه الله أستاذنا الخضري، لقد جَزَم بأن بيئتَنا المعاصرة لعهدهِ في القرن الرابع عشر الهجري كانت أصحَّ إيماناً وأصدقَ يقيناً من بيئة أبي الفرج الأصبهاني في القرن الرابع، وقد انتقل الخضري رحمه الله إلى جوار ربه في سنة ١٩٢٧ ميلادية، ولو امتدّ به الزمن حتّى سمع ما يُمثّل في الراديو من معابث، وما يُرىَ على شاشة التلفزيون في بعض البلاد الإسلامية من مقابح، لعلم أن التاريخ هو التاريخ! وأنّا لا أُسيء الظن بحاضرنا الراهن، ففي كثيرٍ من المسلمين حميةٌ مخلصة، وترفع صادق، ولكنّ بعض القائمين على الإعلام كبعضِ مؤلفي القصص، يتملّقون الغرائز، ويُثيرون الشهوات، كما فعلَ أبو الفرج حين تَعقّب الفضائح المُخزية من أحوال الساقطين والساقطات ليجعلها أخباراً تُروى وقصصاً تُقال.

على أنّ الرواية لم تتم فصولاً، فلم يكدِ الجزء الأول من المهذب يرىَ النور، حتّى قابله الدكتور طه حسين بردٍ متكرر، يُنكر فيه اتجاهَه إلى الحذف والتنسيق والإكمال، إذ لا بدَّ في منطقِ الدكتور أن يخرجَ كتابُ الأغاني كما أرادَ صاحبُه أن يكون، لا كما حاولَ الخضري أن يَخْرج، وقد تعرّض الدكتور إلى ما حَذفه الخضري من ألوانِ الفُحش فقال في صراحة[١٠]:

«ومسألةٌ أخرى هي مسألةُ ما حُذف من الكتاب، وأنا أعلمُ حقَّ العلم أنّ من المتقدمين منَ كان يعدلُ عن رواية الفاحش من الشعر سواءٌ أكانَ فحشُه مؤذياً للعاطفة الدينيّة أو للأخلاق أو للآداب، أعرفُ أن ابن هشام عَدل في السيرة عن شعرٍ فاحش، وأعرفُ أنّ المبرد أبَى أن يَروي كلَّ ما قال كعب بن جعيل في عليّ، وأعرفُ أن أبا الفرج نفسه أبَى أن يَرويَ كثيراً من شعر السيد الحميري لأنّ فيه سبّاً لأبي بكر وعمر، أعرفُ هذا كلَّه، وأعرفُ أن ابنَ قتيبة كان يُنكرُ مثل هذا التحرّج، وهو يعيبُه عيباً شديداً في مقدمة كتابه المعروف (عيون الأخبار) أعرفُ إذنْ أنّ القدماء كانوا في هذا الأمر كما نحنُ الآن، منهم من يتحرجُ من رواية الفحش، ومنهم من لا يتحرّج، أعرفُ هذا كله، ولا أغيّر مع ذلك رأيي في عمل الأستاذ تغييراً قليلاً ولا كثيراً، لكَ أن تتحرّج من رواية الفحش، أو لا تتحرّج، ولكنْ في كتاب تضَعهُ أنت، لا في كتاب يضعه غيرك... إنّ من الطغيان على أبي الفرج أن تَحذف من كتابه شيئاً وضَعه هو في كتابه، وإنّ من الطغيان على قرّاءِ الأغاني أن تَحرمهم قراءة شيءٍ في الأغاني كان حقُّهم أن يقرؤوه ، ولستُ أشك في أنك أردتَ الخير، ولكني لا أرىٰ لإنسانٍ مهما يكن حقّاً في أن يُكرِه الناس على أن يَكُونوا أخياراً فيما يَقرؤون أو فيما يكتبون أو فيما يعملون».

هذا بعضُ ما قاله الدكتور طه، وقد اعترف أن للخضري أمثالاً من السابقين كابن هشام ، والمبرّد، ولكنه رأى النزوعَ إلى الكمال لدى الخضري مما يُعاب! إذ لا يجوز له في منطقِ الدكتور أن يَجبُرَ الناسَ على أن يكونوا أخياراً! والأستاذ الخضري لا يستطيعُ أن يَجْبُر الناس على أن يكونوا أخياراً ولكنّه يمنعُ عنهم الشرَّ كيلا يقعوا فيه! فهل يُعاب؟

والطريف أن الدكتور الذي آخذَ الخضري على التصّرف في كتاب الأغاني، وكَتَبَ عن ذلك أكثرَ من مقال، قد أشرَف على نشر كتاب (تجريد الأغاني) مع الأستاذ إبراهيم الإبياري، وابنُ واصل الحموي، وفي التجريد قد حَذفَ وبتر، ونَفى واختار، وهو بذلك كلّه يشتركُ مع الخضري في بعض ما صنع؟ فهل بدَّلتِ الأيامُ رأي الدكتور فشاءَ أن يرجعَ عن مَنحى قديم قد اتجّه إليه، إنْ كان الأمر كذلك. فليسَ فيه ما يُعاب، فالإنسان دائم البحث، وقد يظنُّ الصوابَ خطأ، والخطأ صواباً ثم يتّضح له وجهُ الحق فيرجعُ عما ظنّ، ونحن نقرأ المقدّمة التي كتبَها الدكتور طه حسين لكتاب تجريد الأغاني لابن واصل الحموي فنجدهُ يقول ملتمساً[١١] تبرير ما يُنشر من كتاب مُختصر: لقد أُلِف كتابُ الأغاني

في القرن الرابع لِقوم لم يكنْ مُقَتَّراً عليهم في الوقت، ولا في الجهُد، ولا في الفراغ، لم تكثُر حاجتُهم، ولم يشتدّ اضطرابُهم فيها، ولم تُخجلهمُ المنافعُ والضرورات عن الفراغ للعلم والجدّ في سبيل المعرفة، وأينَ تكونُ حياةُ الذين كانوا يعيشونَ في العالم العربي منذُ ألف سنة من حياتنا هذه الأيام؟ واينَ يكونُ استقرارُهم من اضطرابنا، وهدوؤهم من قلقنا، وفراغُهم من امتلاءِ أوقاتنا ؟!.. ومن أجلِ ذلك آثروا كتابَ الأغاني وكَلِفوُا به وتَنافسوا فيه، ثم لمْ تلبث ظُروف الحياة أن تغيّرتْ وإذا مَلِكٌ من ملوك الأيوبيين، يَذْكُرُ هذا الكتاب، ويتقدّم إلى عالم جليل من أصحابه هو محمد بن سالم الموصلي في حذف ما كان يَرى فيه من الفضول.

ثم يقول الدكتور بعد كلام متصل[١٢]:

ونحن بينَ اثنيْن إما أن نَنشرَ مثل هذا الكتاب ليقرأه وينتفع به من لا يمْلِكُ الوقت والجهد لقراءة كتاب الأغاني، وإما أن نُخلِي بين الأدب العربي القديم وبينَ النسيانِ يُلقي عليه أستارَه الكثاف، ويَقْصِرُ العلمَ به على الذين يَفرغون له، ويتخصصّون فيه ، وواضحٌ أنى أوْثر الأولَى ، فقراءةٌ مختصرةٌ لكتابِ الأغاني خيرٌ من أن يُجهلَ الكتاب، ويُجهلَ مُختَصرُه، ويُجهل الأدبُ العربي كلّه».

لقد أجازَ الدكتور لابن واصل أن يَختصر ويحذف، وأجاز لنفسه أن يَنشر ما كتَبه ابنُ واصل، وأن يُشرِف على تحقيقه! وهوَ بذلك يُجيز للخضري ما أنكَره من قبل! ولا تَناقض، فالزمنُ مُختَلِفٌ بين الرأيين! إنما التناقضُ في قولٍ يتحدُ فيه الزمان!

إنّ دُعاة إثباتِ المجون من محققي التراث كثيرون، وكنا نظنُّهم ممّن لم يتعمّقوا في الدراساتِ الإسلامية مِن صفوة العلماء، ولكنّ الواقع العجيب ينطقُ بغير ذلك، فقد أشرفَ على تحقيق بعضِ الدّواوين الشعرية والموسوعاتِ الأدبية فريقٌ من أئمةِ الرأي في الإسلام، وهمْ من الصفوةِ الكرام الذين لا يتطرّق شكٌّ ما في خُلوص سرائرهم، وعظيم بلائهم المشهود، هؤلاء الأماثلُ الأعلامُ حَرصوا على إثبات المجُون والتبذّل، ودافعوا عن حَقِّه في الذيوع، ورأوا في إسقاطِه خيانةً للمؤلف، وجنايةً على التراث، ونكْتفي بأن نُشير إلى مُحققيْن كبيريْن، لهما مركزُهما العلمي الجهير بين الدارسين أوّلهُما أستاذُنا الكبير الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد رئيس لجنة الفتوى بالأزهر، وعميد كلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية، وعضو مجمع اللغة العربية بمصر رحمه الله، وثانيهما أستاذُنا الأكبر العلامةُ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، رئيس الإفتاء المالكي بتونس، وشيخُ جامع الزيتونة، وشيخُ الإسلام بالديار التونسيّة، وعضو مجمعي اللّغة في القاهرة ودمشق، ومفسّرُ كتاب الله في أجزاءِ قيمة ممتازة نُشرت تحت عنوان (التحرير والتنوير) لهذان العلاّمتان الكبيران، قد دافعا عن حقّ المؤلف القديم والشاعر السالف في نشر كلّ ما قال، لقد نشر الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد كتابَ اليتيمة للثعالبي في أربعة أجزاء، وكتابُ اليتمة سِجلٌ حافل بآثار أدباء عصرِه في شتّى ممالك العربيّة وربوعِ الإسلام، شعراً ونثراً، وهو مصدرُ الدارسين لكثيرٍ من المغمورين والمشهورين معاً، حيثُ جمع من الآثار الفنية ما لا يُوجد في غيره، ومن بينها ما يَنْدى له الجبين خلاعةً وسخفاً، وقد قال الأستاذ محمد محيي الدين[١٣] في مقدمة الكتاب.

وفي الكتاب مجونٌ كثير، كما تجده في المختار من شعر أبي الرقعمق، وأبي القاسم الواساني، وابن لنكك وأبي الحسن السّلامي، وابن مكّره وابن حجاج وغيرهم، وقد تردّدنا كثيراً في أن نُجارِيَ بعض أدباء هذا العصر- يقصد الشيخ الخضري ومن حاذاه - فنحذفَ هذا المجونَ، ولو من بعض نسخ الكتاب، ولكننّا لم نشأ أن نَحذف شيئاً ممّا في هذا الكتاب من المجون، كما يفعلُ بعض الناشرين، تحرُّجاً منهم وتأثماً، -زعموا- وحِرصاً على مكارم الأخلاق ظنّوا، لأنّنا لا نُؤلّف كتاباً نختارُ فيه ما نشاء، وندعُ ما

واجبنا كشف انحدار من غرقوا في الإسفاف المبتذل فقعدوا أصالة الإبداع

نشاء، وإنّما نُحقّق نصّاً قيّدهُ صاحبُه في زمنٍ كان الناس أشدَّ تحرّجاً من هذا الزمن الذي نعيش فيه، ولأننا لا نَرى من حَقّنا أن نتصرّف في كُتب الناس، ثم نُبقيها منسوبةً إليهم، فيجيئوا يوم المعدلةِ يتعلّقون بمن ظَلمهم يُجادلونه عن أنفسهم، والله يعلمُ أنّنا لا نقلُّ عن هؤلاء تحرّجاً من المجون، ولا حرصاً على مكارمِ الأخلاق، ولأنّ الغرض من نشرِ هذا الكتاب، واحتمالِ الجهد الجاهدِ في تحقيقه، والصبرِ على الكثير مما يُغْري بعضُه بالانصراف، إنما هو أن نَدُلَّ قراءَ الأدب العربي على الحياةِ الأدبية، والحياة الاجتماعيّة والسياسية في هذه الحقبة، التي كان هؤلاء الشعراء يَعيشون فيها، فلو أنّنا سمحنا لأنفسنا بحذف شيء مما اشتملَ عليه الكتاب لكنّا قد أضعْنا هذه الغاية ، ولكُنّا كمن يُجهّزُ جنديّاً للقتال فيضعُ في يده سيفاً من الخشب، ويُقعِده على صَهوة جوادٍ من قصب».

دون إبداع:

هذا ما قالهُ الأستاذ المحقق، وقوله لا يخلُو من نظر، لأن الحكمَ بأن عهدَ الثعالبي كان المسلمون به أشدَّ تحرّجاً من عهدنا الراهن حُكْمٌ لا تؤيده الشواهد، والهدى والضلالُ قائمان لا يفترقان في زمن من الأزمنة، ولكنّ عهد الثعالبي بالذات مما طَفح فيه الكيلُ وعمّت البلوى، أمّا الخوفُ من أن يجيء المؤلّفُ الذي حَشَد صنوفَ المجون ليسأل الشيخ يومَ

القيامة عن حقّه الذي ابتزّه حين حَذف الفسق من كتابه فما أظنُّه إلا دعابةً فكهة ساقَها الأستاذُ عفواً دون قصد، لأنّ هذا اليومَ الهائل المُفزع يفّر فيه المرء مما أسلَف من الأوزار، أمّا أن يَحرِص على أنْ يُثبتَ أنّه دَوَّن الفحش، وسطّر الفُجور فذلك لن يكونَ إلا إذا اعتقَد الشيخُ الكبير أن هذه المبتذلاتِ الهابطة مما يُتَقرّبُ بها إلى الله ﴿يومَ لا ينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[١٤] أما الحكمُ على العصر بإثباتِ ما قاله مَاجِنوه، فتلكَ دعَوى عريضة تجدُ بريقاً خادعاً لدَى من يأخذُون بالظواهر البرّاقة، لأنّ كُتّاب التاريخ في القرن الرابع الهجري، لم يَدعوا في مجلداتهم المتتابعة شيئاً يُقال عن أحوالِ السياسة والاجتماع وطوائِف الناس من هابطين ومرتفعين! وإذا أمكن الاستشهادُ ببعض الشعر كدليلٍ على انتشار المجون، فيكفي أن نَذكر أسماءَ الشعراء بل يكْفي في مجال التاريخ أن يستشهد لأحدِهم بنموذج واحد، أمّا أنْ نحرِص على جمع الخسيس من القول، والرذْلِ من النظم لنقول إننا نقدّمُ الوثيقة الدّالة على خلاعة

حملة غاشمة شنّها من نصبوا أنفسهم دعاة حرية لنشر الفجور والتهتك!

العصر، فإن المؤرخين قد قَدّموا آلاف الحقائق، المستغنية بوقائعها المشهودة عنْ نظم المجّان والخلعاء، وهنَاك حقيقةٌ فنية مهمة، هي أن الشعر المبتذَل، الذي ورَد في اليتيمةِ رديءٌ من الناحية الفنية، فليستْ فيه وثباتُ ابن الرومي التصويرية مثلاً، حتى نقولَ إنّه ضربٌ من الفن التصويري الدقيق، ولكنّه سردٌ للهنات السوقيّة، وولوعٌ بالألفاظ الجنسيّة، على نحو ما يقولُه العامّة من المبتذلين، لو تحوّل حديثُهم إلى نظم مقفّى! هذا في أكثره الكثير! وقد قرأتُ ديوان ابن حجاج فما رأيتُ معنىً شعرياً يدل على فن راق، بل رأيتُ الإسفاف المبتذل، واللفظ الكريه دونَ ابتكار يُفتَنُّ به من يريدون أن يتمتعوا بهذا الضرب من الكلام! وأذكر أنّي قلت في مقال قديم عن مأساةِ هذا الديوان مَا يفيد أن جامعة جِيسُنْ بألمانيا قد قسّمتْه إلى عشرة أجزاء، ووزعَتْه على طلاّبِ الدكتوراة من أبناء العرب والمسلمين؛ ليأخَذ كلُّ دارسٍ قافية كالهمزة أو النون أو الميم أو الراء مما يكثرُ فيها الوزن، لتكونَ كلُّ قافية من هذه الحروف مجالَ التدوين لا التحقيق في رسالةٍ علميّة، تحفلُ بالنّص الساقط فقط، مع مقدّمة مبتورة لا تتجاوزُ عشر صفحات تَسِمُ العصْرَ بالانحلال ! وبين يديَّ الجزءُ الخاصّ بحرف النون وهو يضمّ ثلاثمائة وستين صفحة، كلها فجورٌ متهتك، وليسَ بها من الخيال الإبداعي والتصوير الفنّي ما يشفع لها في البقاء، وأنتَ تتساءل لماذا اهتمّت جامعة (جيسُنْ) بابن حجاج ومن على شاكلته وحدَهم من شعراء اليتيمة والأغاني، والجوابُ واضح هو كشفُ انحدارِ مَن غرقُوا في الإسفاف المبتذل إلى الأذقان، دونَ أن يُبدعوا شيئاً من الفن العربي الأصيل، باعتبارِهم -في نظر الغرب- نموذجاً للشعر العربي على مرّ العصور. وكأنّ الأدب العربي في جاهليته وإسلامه حتى اليوم لم يَعرفْ سوى هؤلاء من ذوي المروءات! لقد كانَ ديوان ابنِ حجاج وأمثاله مغموراً مَجْفُوّاً بين المخطوطات الدفينة، فكيف حَرَصَ القائمون على الدراساتِ الأدبيّة بجامعة جيُسن على بعثه وتوزيعه على عشرة طلاب من دارسي الدكتوراة، إنَّ الثعالبي في يتيمته الحافلة هو الذي نبّه هؤلاء إلى اصطياد ابن حجاج وأمثاله؛ ليكونُوا وَجْهاً بارزاً للشعر العربي في أزهر عصوره كما يزعمون، ثم لكَ أن تسألَ بعد ذلك ما الذي أفادَهُ الدارس الذي رجعَ من ألمانيا يحملُ رسالة الدكتوراة في أساليب البحث العلمي؟؟ وما الّذي عرفَه من مناهج الدراسات الأدبية؟ وهو لمْ يزدْ على أنْ قَرأ مخطوطاً سخيفاً، واكتفَى بجزءٍ منه لينشرَه في كتاب، مع مقدمةٍ لم تتجاوز الصفحاتِ العشر!! أيكونُ مثلُ هذا الدارس مُهيّئاً لأن يكونَ من أعضاءِ هيئة التدريس بالجامعات العربية؟ إنّ درجته العلمية تمنحهُ هذا الحق، بل تُعطيه منزلةً لدى بعض الناس يعلُو بها عمنْ لم يدرس الأدب في ألمانيا؟ ولا أنكر أن نفراً من المبعوثين قد سلكوُا مسلك الجد، وقاوَموا الصّعاب؛ حتى ظفروا بأرقى الإجازات العلمية عن جهدٍ وموهبة! ولكنْ مَا نَقولُ فيمن عكَفوا على نشرِ هذه التفاهات فحسب! قد يكونون معذورين لأنّهم تلاميذ يخضعون للمشرفين الكبار! والمشرفُ الكبير بانتحائه هذا المنحى ذُو غرضٍ مريض...

هذا عن كلام الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد في مقدمة كتاب اليتيمة، أمّا أستاذُنا العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور فقد اهتمّ بما عثر عليه من ديوان بشار بن برد جمعاً وتحقيقاً وشرحاً، وقد أبدعَ غايةَ الإبداع في نهجِهِ التفسيري، فلم يدعْ غامضاً من مسائل اللغة والبلاغة والنحو والتصريف إلا جلاّه بإشباع وإمتاع. وهو يذكّرنا بشرح العلامة الشيخ سيد المرصفي على كتابه الكامل؛ لأنّ كلاً من ابن عاشور والمرصفي قد أعادا للأذهان تآليفَ ابن جنّى والتبريزي والمرزوقي في تعليقاتهم العميقة، وغوْصِهم الدقيق، وتَهدّيهم إلى أخْفى المعاني، وبصرهم بأدق التراكيب، ولكنْ، نَرى أستاذنَا ابن عاشور يُقدّم الديوانَ بدراسة أدبيّة شافية وافية ذات شمولٍ واستشفاف ثم يختمُها برأيه في تسجيل ما رُوي من مجون بشارٍ، فيقول في إصرار[١٥]:

ومما ينبغي التنبيهُ عليه، أن بعضاً من أهل الأدب في عصرنا قد استحسَنُوا أن يَتصرفوا فيما ينشرونَه في الكتب بحذفِ ما يلوحُ لهم من الألفاظ، التي يُسْتحيا من ذكرها في المحادثات الموقّرة. وفي ديوان بشار من هذا النوع شيءٌ ليس بالقليل، ولما عزمتُ على نشر الديوان، فرضتُ في نفسي التردّدَ بين طريقة إثبات شعر الشاعر على ما هو عليه، وبين طريقة

حذف ما قد يستحيا منه، ثم جزمتُ بسلوك الطريقة الأولى؛ لأنّ فيها أداءً لأمانـة النقل على ما هي عليه، إذ لا ينبغـي أن يُصوَّر الشاعـرُ أو الكاتب على حسبِ مـا يشتهيـه الناقل أو القـارىء، بل ينبغي أن يُظهـرَ كما هـو بأخلاقـه وألفاظه. وأخلاقِ أهلِ عصره، وعـاداتهم، كما قيل (صحيفة لبّ المرء أن يتكلما) ولسْنَـا بالـذين نُصْلحُ من الشـاعر مـا أفسده طبعـهُ، ولا نَشْعبُ مـا تشقّق به نبعُه، على أنّ أهـل الأدب قد اغتفروا المـازحـة في مثل هـذا الباب، وقـد سلكَ الحريريُّ ذلك في المقـامة العشرين، ثم القـارىء والمنتخبُ والمدرس أمراءُ أنفسهم في الاختيار، ولـو ذهبنا ننتخبُ من خُلق الشاعـر ما لا يَروق لـدينا من صُـور حاله وعقلـه، لكثُرت للشاعـر صَورٌ بكثـرة النـاخبين، واختلاف أذواق النـاشرين، فإن هـذا لا يُضبطَ بحـد، فيـوشك أن نعمد إلى الشعـر فنحذف منـه غزلَـه، إذ معظمه لا يخلـو من عُروض الاستحياء لقارئيه بمحضرِ مختلفي الصنف والسن.. وأمانةُ العلم تُوجب إثبـات ما تركه القـائلون كما هو، وربما اعتـذر بعضُ الناس لحذفِ ما يحذفونَه بأنّه مما لا يُحسـن أن يُدرّس بالمدارس للصّغارِ وهو عذرٌ واهٍ إذ ليسَ من الـواجب تَـدريس الكتـاب كلّه، وإنما المدرسُ ينتخبُ مـا يـراه حسناً، ويتركُ ما يراه قبيحاً وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً».

أثبتنا كـلام الشيخ ابن عاشـور على طولِـه، لنرى أنّه يـردّدُ ما قـالَه نُظراؤه من قبـل، ويزيد عليهم حين يـزعُم أن الحذَف ينقصُ من تصـوير عصر الشاعـر اجتماعياً وأخلاقيـاً، وهو زعمٌ تـرددَ من قبل على ألسنةٍ من يجعلـون الشّعـراء وحـدهم مـرآةَ العصر، وهـو زعمٌ واهٍ لا سَنـدَ لـه، لأن الشعـراءَ ليسُـوا وحَـدهم في الميـدان، فبجوارِهـم نجدُ الفقهـاءَ والـزهـادَ والمحدثين والمفسّرين وأئمـة الكـلام مـن فطـاحِل العلماء، وكلُّهم يمثلُ جـانبـاً من جوانب العصر، ومـا أُتِي الـدكتـور طه حسين في بحـوثـه عن العصر العباسي إلاّ من حيث جعل أمثـــالَ أبي نـواس وبَشـار ومطيـع ابن إيـاس والحسين بن الضحـاك ووالبة بـن الحباب ومن نَحـا منحـاهم المتحدر همْ وحـدَهم من يمثّلون العصر العباسي الأوّل، مَع ازدحـامِ هذا العصر بأنماطٍ عـاليـة من أهـل التحـرز والتصـوّن، من أمثـالِ أبي حنيفـة ومـالك والشـافعي وأحمد بن حنبل وسفيـان الثوري ويحيى بن معـــين، وعبد الله بن المبارك وعمرو بن عبيد، وكلهم متبوع غير تابع، فإذا كانَ لمثل بشار أو أبي نواس طائفةٌ تَميلُ إلى مجونـه، فتلك الطائفةُ لا تبلغ معشار من يلتفّون حـول الأئمة الكبار مـن العلماء والمحدثين! وقد يـوجد في العصر الواحد خليعٌ كـابن سُكّرة ومتصوّنٌ كالشريف الـرضى! فأيّهما الذي يمثّل العصر من هذيْن الشاعرين! إذا كان الشعر وحده هو المقياس!؟

أمّا أنّ أهـل الأدب قد اغتفـروا المـازحة لأمثـالِ الحريري في المقـامة العشرين، فليسَ ذلك بمانع أن نقـولَ إن الهمذانيَّ والـزمخشريَّ والأصفهانيَّ والبازجيَّ كانوا أعفَّ منه قولاً فيما كتبـوا من المقامات، وإن الحريريَّ بالغاً ما بلغ لا يُقـاس بالهمـذاني في فنِّه المحكم وتصـويره الـدقيق، وأذكرُ بهذه

ظلموا المرأة فقالوا: إنها تحررت على يد شهرزاد ألف ليلة وليلة!!

المناسبـة قولَ القـائل كيف يلحقُ الحريريُّ بـالهمذاني؟! والهمـذاني بديع الزمان، والحريـريُّ لا يبلغُ أن يكون بديعَ يوم واحـد، أما أنّ المدرس يختارُ العفيفُ لطـلابه ويترك المبتـذل، فالمدرسُ ليس وحـدَه الذي يقـرأُ الشعر ويرويـه، لأنّ الديـوان يَنتشرُ بين الناس جميعـاً، طلابـاً وغير طلاب، فإذا تحكم الأستاذُ فيما يعـرضهُ للطـلاب، فمن يرشـد بقيّة القـارئين!؟ ولنا أن نسأل أستاذنـا العلامة ابن عـاشور، آنال بشارٌ مكـانتَهُ الشعريـة بقصائد الجدّ أم بقصـائد المجـون، إن بشـاراً كـان رأسَ المُحـدَثين، بما أبـدعَ من قصائدِ الـوصف والمديح والرثاء والغـزل العَف! وأكثرُ مقطوعـات الغزل العـابث كانت استرضـاءً لبعضِ الجواري اللآتي لا يفهمْن من الشعـر إلا السّطْحيَّ السـاذج على نحـو (ربابةُ ربـة البيت) كما أنّ أكثرَ أهاجيـه كان إمعانـاً في تجريح مَن على شاكلتـه من المُنحدرين، وقـد قال فيهم، وقـالوا فيه، فما كان مقالُه في هذا المضمار موضعَ التبريز!

لقـد كـان المتَحدِّثُـون عن الأدب المكشـوف في التراث العـربي من المختصين الـدارسين، ولكنَّ حـادثـاً هبّ إعصـارُه فجأةً على مِصر ففتح بـابَ الحديث لكلِّ من يستطيعُ أن يُمسِكَ القلم، أو يجدَ مجالاً للنشر، ممّن لم يقـرؤوا من التراث شيئـاً ذا بـال، ولكنّهم عنـد أنفسهم دعـاةُ حـرّيـة، وأربـابُ فكـر، ولا بـد أن يُسهمُـوا في القضـاءِ على كلِّ رأي يخالف نَشر الفجُورِ المتَهتّك، فقد ظهرتْ طبعةٌ لكتـاب (ألف ليلة وليلة) غيرَ الطبْعة التي تَناولها التهـذيبُ بحذفِ ما يُعتبر قـولُه جـريمةً داعرةً، وثـارتْ ثائرةُ ذوي الحِميّة فرفعـوا الأمـرَ إلى القضـاء.. وقد رأت محكمـةُ جُنَح الآداب بالقاهرة أن تتعمَّق الأمر تعمُّقَ القضـاة العدول، فدرست الموضوعَ دراسةً محايـدةً ثم انتهتْ إلى وُجوب مُصـادرةِ الكتاب، ونَشرتْ جـريدةُ الأهـرام الصادرة بتـاريخ ١٠/ ٦/ ١٩٨٥م حيثياتِ الحكمِ الدقيقة، وقـد جاء بها مـا فحواه أن كتـابـاً ما من التراث لا يُمكـن أن يَرْقَى إلى مصـافِ الكتب

طـه حسـين

العقـــاد

عندما وقف العقاد والزيات وأحمد أمين ضد الهبوط الماجن

المقدسة التي لا يجُوز المساس بها، والتي تتأبّى بقداستِها على حُكم القانون، وإذا كانتْ شُرطةُ الأحداث ونيابةُ الآدابِ قد طَالَبتا بإعمالِ حكمِ القانون في هذه الطبعة، فإنّ هذا الكتاب قد تَعرّضَ منْ قبلُ إلى تهذيب منهجي حُذفت منه عباراتُ التوقح وما يخدشُ الحياءَ العام، تلك الطبعةُ المهذّبةُ صَدَرَتْ عن دارِ الشعب، وتولّى إعدادها الأستاذ أحمد رشدي صالح، وقالَ إنّ الكتابَ يَدخل كلَّ منزل ولا بدَّ من تخليصهِ مما يَسوء كرامةَ الأُسرة، بحيثُ يُقبل على قِراءَتِهِ الآباءُ محبّذين أبناءَهم على هذهِ القراءة ذاتِ القيمة الجيّدةِ بعدَ الحذف والتهذيب، لكنّ مَن جاؤوا بعده لم يلتفتُوا إلى هذا المغزى النبيل، فانتشرتِ الطبعات السوقية مستغلةً اسم التراث في الكسبْ الحرام، حين تَجمعُ الحكاياتِ المثيرةَ والأخبارَ الفاضحةَ لتكون مسلاةَ النشء يقرؤونَها من خلفِ ظُهور آبائهم، ثم قالت المحكمة ما نصّه:

«ولما كانت نسخُ الطبعةِ المضبوطة من مؤلّف ألف ليلة وليلة قد طُبعت واستُوردَتْ، وأُعِدّت للبيع للجمهور ولم تكنْ نُسخاً محفوظة في إحْدى المكتبات العامة لتكونَ تحت أيدي المتخصصين في شؤون التراث، فإنّ المحكمة والحال كذلك تقرّرُ أنّ هدفَ المهتّمين من استيراد الطبعة المضبوطة بقصد الاتّجار فيها، لم يكنْ نشر التراث بل هدفُها الكسبُ الماديّ مستغلين في ذلك اسمَ التراث. رغم احتواءِ النسخ المضبوطة من هذه الطبعة على العديد من روايات الجنس والشذوذ الجنسيّ ، والألفاظ الجنسيّة الصريحة والأشعار الفاضحة، كما أن محكمة النقض قد قضت بأنّ الكتبَ التي تحوي رواياتٍ عن الجنس وما تفعلُه العاهرات من التفريط في أعراضهن، يُعتبر نشرُها انتهاكاً لحرية الآداب والأخلاق» ثم انتهت المحكمةُ بمصادرةِ النسخ المطبوعة وتغريم المتهمين غراماتٍ ماليّة قدرتْها، كما رفضْت تَدخُّلَ اتحاد الكتاب:

أحمد أمـــين

هذا الحكمُ العادل المؤيّد بالحُجج، المستَندُ إلى نصوصٍ من أحكام محكمة النقض قد أعقبَ من مُختلف الصحف اليومية ضجةً هائلةً وكأنّ زلزالاً أوْشَكَ أن يُدَمّرَ الكون! فأنت تقرأ ما انهالَ من تعليقات الأدعياء والأُصلاء معاً.

وأكثر ما قيل خارجٌ عن موضوعه كلّ الخروج، لأنّ أساسَ المشكلة هو المجونُ بيْن الحذفِ والإبقاء، وكانَ المعقولُ أن يَدور حولَه التعليقُ الهادفُ لنصلَ إلى الحق من أقرب طريق، ولكنّ حضرات الصاخبين قد تركُوا (مناطَ الخلاف) كما يقولُ الأزهريون، وتفرّقوا طرائق قِدرا، فمن قائلٍ إنّ كتاب ألف ليلة وليلة كتابٌ عالميّ، أحدثَ دويّه في أوربا وعلى أُسُسه قامتْ بعضُ الفنونِ المشتهرةِ في الأدبِ القصصي، ومن قائل إنّ بوكاشيو أديبُ إيطاليا الأكبر قد كَتب مجموعَتة الرائدةَ (الديكاميرون) بوحْي من ألف ليلة وليلة، ففتَح بذلك فتحاً جديداً في أدب الغرب إذ احْتذاه مئاتُ الفنانين، ومن قائلٍ إنَّ تحرير المرأة قد تمَّ على يد شهرزاد، وبذلك سبقتْ حركاتِ التحرّر النَسوية في أوربا، وصارَ ألف ليلة وليلة معلمَ تحررٍ اجتماعيّ وإنقاذٍ للأسرة فَوقَ ما هُوَ معلمٌ فنّي في دنيا الرواية الأدبيّة ، ومن قائلٍ إنّ الكتاب دعوةٌ إصلاحية سياسية للتّحرر مِن سيطرةِ الحاكم الغاشِم، ومجابهتِهِ عملياً بما يترقبّه من سوء المصير، ومن قائلٍ -وهو الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود - إنّ هذا الكتاب يُمثّل الدورَ الكبير الذّي قامتْ به مصر بالذات، لأنّ حكاياتِه وإن نشأتْ في أقاليمَ مختلفة لكنّ الحكّاء المصريّ في القرن الرابع عشر الميلادي قد استطَاع أن يجعَل منها صيغة مصرية، تُقرأ في المقاهي والندوات منذ هذا القرن البعيد، ومن قائلٍ إن الجرائم الظالمةَ من اغتيالٍ واختلاسٍ وقهرٍ تُحتَمُ دائماً بوقوعِ المجرم في العاقبة الأليمة ليلقى سوء العقاب، ومن قائلٍ إنّ كُتب التراث -غير ألف ليلة- تضم ٩٠٪ من هذا السّقوط فلماذا لم تُصادَر ، وهو قولٌ يدلّ على أنّ صاحبه الجامعي لا يعرف شيئاً عن أدب التراث، وأنّ هذا الرقم قد اخترعَه اختراعاً لا يجرؤ عليه إنسان عاقل. فأيْنَ كتبُ التفسير والحديث والأخلاق والتشريع والتاريخ؟ بل أين كُتُب الأدب وحدها من أمثالِ الكامل والأمالي والشعر والشعراء وطبقات الفحول وما لا يتّسعُ المقام لسَرده وما بهما مِن الابتذالِ إنْ وجِدَ لا يُساوي واحداً في المائة فحسب! أما المضحكُ حقّاً فهو أن تكتب إحدى المجلات: إنّ ألف ليلة معجزةُ العرب، لأنّ معجزةَ العرب هي الكلمة!!

فإذا راجعنا هٰذه الأقوال وما يُوافقها مما لم نستطع تلخيصَه، فإننا نجدُها، لم تُصب المحزَّ في نقطه الخلاف، فللكتابِ مزاياهُ التّي لا يُنكرها مَن حاولوا إنقاذَه من الفواحش، فإنهم جميعهم لا يقولون: أحرقُوا الكتاب أو أعدموه، ولكنهم يقولون أنقِذوهُ من الأوضارِ الشّائنة، ليبقَى للرّواية العربية منُه وجهها الجميل، وتكون المفاجأة الصارخة حين يُستأنفُ الحكمُ، فتقضي محكمةُ الاستئناف ببراءة النّاشر، وتُسجّلُ جريدةُ الأهرام حَيْثيّاتِ البراءةِ، بما لا يخرجُ عن «أنّ المحكمة قد استقر في

وجدانها أنّ الكتابَ المضبوطَ لا يُعتبر كتاباً في الجنسِ، كما لمْ يُكتَبْ أصلاً لخدش الحياء، كما أنّ السوق مليئةٌ بكتبٍ من التراث تحملُ ما يحملُ من عباراتِ الغزل الصريح، ويجب أن يُنظر إلى الكِتاب ككُلٍّ متكاملٍ لا إلى عباراتٍ مُنفصلة عن أصْلها، ومنهُ استقَى كبار الأدباء مصدرَ روائعهم الأدبيّة مما يَنفي عنه مظنة إهاجةِ الشهوة لدَى قرائه، كما تهيبُ المحكمةُ بالمجلس الأعلى للفنون والآداب أن يَعمل على وَضْع ضوابط لكُتب التراث، والعملِ على تنْقية هذه الكتب من الهناتِ منعاً لكلّ مظنة!».

هذا موجزُ ما انتهتْ إليه محكمة الاستئناف، وإذا كانْت قد طلبتْ في نهاية كلامِها أن يَعمل المجلس الأعلى للآداب على تنقية كتب التراث مما يُنافي الآداب، فإنّها بذلك تُنكِر ذكر هذه السقطات المبتذلة! وهل ثارَ أربابُ الحميّة إلا مِن أجل هذه السقطات، وهَلْ طالَبُوا بتنقيح كتب التراثِ إلا لِتُمْنَعَ أمثال هذه الابتذالات الهابطة من نسخةِ ألف ليلة وليلة! وإذا كانت المحكمة تقولُ إنه قد استقَر في وجدانها أن كتاب ألف ليلة وليلة لا يُعتبر كتاباً في الجنس، ولم يُكْتبْ أصلاً لخدش الحياء! فنحنُ نوافقها على أن الكتاب ليسَ كلُّه كتابَ جنس، بل ليسَ أكثره كتابَ جنس! ولكنّه يتضمّن ما يُغري بابْتذالاتِ الجنس، وهُنا مربَطُ الفرس كما يقال، أما أنّه لم يُكتَبْ أصلاً لخدش الحياء، فلا يَنْفي ذلك أنّ خدْشَ الحياء قد جاءَ عن طريق التّبعيّة، وليسَ المهمُّ أن يكونَ هذا الخدشُ أصلاً أو فرعاً، إن المهم أنّ ما يخدِشُ الحياءَ مُدَوَّنٌ مسطورٌ بما لم تستطِع المحكمةُ أن تُنكره في شيء، وإذ جازَ لنا أن نَتركَ المحكمة الرسميّة في حُدودها الضيقة، إلى محكمة الرأي العام في أبعادِها المترامية شرقاً وغرباً، فإننا نتساءل: أيُّهما أفضل؟ أن تكونَ النسخة المهذبة هي الذائعة، أو تكونَ النسخ التي تحمل هذه الابتذالات، وإذا كانَ لهذا الكتابِ منزلتهُ الرفيعة في الشرق والغرب، أتنْخفضُ هذه المنزلةُ حين نُنفذهُ من سَفاهات الجنس، أمْ أنْ هذه المنزلة تظل ناهِضة بما يحملُ الكتاب في صفحاته البريئة مِن أفانين الخيال؟ وإذَا كانت النسخةُ المنقّحة تُؤدي دورَ الكتاب في التاريخ للمجتمع، والإلهام للفنانين، والتسلية للقرّاء، فلماذا الإصرارُ على وُجود ما ينْخفِضُ بمستواه؟ إلا أنّ يكون الإسفافُ غَرضاً مقصوداً بالذات!

لقد قرأتُ بصدد العلاج لهذا التضارب بَينَ الآراء، ما انتهى إليه بعضُ الذين حاولوا التوفيق بين آراء مَن يصمّمونَ على نَشْر كلِّ ما جاءَ من عبثٍ دون إسقاط، ومن يرون أن تُحذف البذاءاتُ دونَ انتظار، فوجدتُهم يرون أن يُطبع كتابٌ كالأغاني أو اليتيمة أو ألف ليلة طبعتين، طبعةٌ منقحة مهذّبة ذات عدد كبير للعامّة، تتعدّد طبعاتُها بحسب نفادِها من الأسواق، وطبعة كاملة محدودة العدد لخاصةِ الدارسين لا تُباع بالمكاتب، ولكنّها تُوزّع على دُورِ الكتب الحكومية لتكون قريبةً من ذوي الدراسات العليا، وهيَ في هذا النطاقِ المحدود، بعيدةٌ عن أيْدي النشء، ولن تَتكرّر طبعاتها، إذْ إنها كالوقفِ المرصود، لا يَعْبثَ به أحد، وأنا أرى أنّ هذه المحاولة التي تَرى أن تطبع من الكتاب طَبعتان، لا تجد مبررها القويّ، لأنّنا نحرصُ عليها إذا كان المحذوف ذَا قيمةٍ فنيّة كبيرة، أو دلالةٍ اجتماعيّةٍ قويّة، أو حفظاً لأُناس من المبدعين يَجبُ ألا تغيبَ أسماؤهم عن سجل الخالدين، أمّا والمحذوفُ من الهوانِ بحيثُ لا يجوز أن يُسألَ عنه، ففِيمَ هذا التمّسك المشتدّ به، وإعدامه خيرٌ من بقائه بكلِّ المقاييس!

ولن نتَحدث في هذا المجال عما يُنشَرُ من أدبٍ إباحيّ معاصر في القصص الخليعة، ويُرَى من هبوطٍ في بعض الأفلام الماجنة. لأنّنا نتحدث عن كُتُب التراث فحسب، وإن كانْت قضيةُ المجونِ المعاصر من الخطورةِ بحيث تتطلبُ بحثاً مماثلاً نرجّو أنْ تُساعد الوسائلُ على استيعابِه فيما بعد، وفي مقالاتِ العقاد والزيات وأحمد أمين التفاتاتٌ جيدة إلى محاربة هذا السفه البغيض، وقد وَجدنا من يسألُ كيفَ أباح المتحرزون من القدماء أمثالُ ابن قتيبة هذا المنحى، كما سبقت الإشارة إليه من قبل، وهمْ ما همْ في إمامة الدين، وشرفِ التصوّن، وكمالِ المروءة، فوجدْنا من يُجيب على هذا التساؤل. بأنّ الكِتابَ لعهدهم -قبْل ظهور المطبعة- لم يكنْ واسعَ الذيوع، مطلقَ الانتشار، إذ كان قراؤه حينئذٍ من خاصّة الخاصة، وما كان هؤلاء يظنّون أن ما يُنشرُ من الأدب المكشوف سيقعُ في متناوَلِ العامة، بل هو حِجْرٌ محجورٌ على ذوي الاختصاص من الدارسين، فلا خوفَ عليهم من انتقالِ العدوى لما يملكون من الحصانة الخلقّية الواقية! هذه كانت مبرراتُ ما وَقعوا فيه من تسجيلِ لهذه الابتِذَالات! ولكنَ الحالَ اليوم غيرهُ بالأمس، فالكتابُ المطبوع تتجاوز نسخهُ الآلاف ويقعُ في يد المتحرز والمتهاون، بل إنّ قراءَهُ من العامة أضعافُ أضعافِ قرائه من الخاص، وبذلك أصبَح طبْعهُ مصدَر خطرٍ أكيد إذا لم يحطْ بالضوابط الواقيات!

هذا موضوعٌ خطير، لا أظن بحثاً واحداً يصل فيه إلى موضعِ الإقناع المستريح، وحسْبي أن أُلقي من الأضواءَ ما يساعد على تبديدِ ظلماتٍ متراكمة حتى يُشرق الصباحُ الجديد.

المراجـــع:

(١) رسائل الجاحظ جـ٢ ص٩٥ تحقيق عبد السلام هارون.
(٢) أمراء البيان للأستاذ كرد علي جـ١ ص١٢٢ ط١ .
(٣) مقدمة كتاب البخلاء مطبعة وزارة المعارف سنة٣٧ ص١١ .
(٤) مقدمة عيون الأخبار ط(١) ص١٢ دار الكتب .
(٥) سورة الأعراف: ١٨٩ .
(٦) سورة البقرة: ١٨٧ .
(٧) أمراء البيان جـ٢ ص٣٣٩ الطبعة الأولى.
(٨) النثر الفني جـ١ ص٢٣٤ الطبعة الأولى.
(٩) مهذب الأغاني جـ١ المقدمة ص ج، ط١ .
(١٠) حديث الأربعاء ج٣ ص٨٠ ط١ دار المعارف.
(١١) مقدمة تجريد الأغاني جـ١ ص(ب) مطبعة مصر.
(١٢) مقدمة تجريد الأغاني جـ١ ص(ج) مطبعة مصر.
(١٣) مقدمة يتيمة الثعالبي جـ١ ص٥ مطبعة حجازي ط١ .
(١٤) سورة الشعراء: ٨٨، ٨٩ .
(١٥) مقدمة ديوان بشار جـ١ ص١١٩ - الشركة التونسية للتوزيع.

مكة المكرمة

شعر: علية الجعار

موطن الأمن والحمى والجوار ... درة الأرض منبع الأنوارِ
حرّم الله أرضها وحَباها ... من قديمٍ بِبَاهرِ الأسرارِ
مكةُ الطهرِ والسلامِ تَسامى ... قدْرُها فوق سائرِ الأقطارِ
رحمة الله ظللتها وفيها ... من رضا الله أعذبُ الأنهارِ[1]
قام فيها لله أولُ بيتٍ ... فاجْتَباها بذلك الإيثَارِ
قِبْلَةٌ تجمعُ القلوبَ سجوداً ... تتحدَّى تفرُّقَ الأقطارِ
كلُّ من جَاءَ للرِّحابِ يُلبّي ... واقعَ القَلْبِ خشيةً مِنْ نَار
يغمرُ الأمنُ قلبَه وتُنَقّي ... روحَهُ نفحةٌ مِن الغَفَّارِ
آه يا مكةُ الحبيبةُ أحْيَا ... بين شَوْقٍ وبينَ طُولِ انتظارِ

* * *

ليس يَرْوي القلْبَ المشوقَ لقاءٌ ... ثم أمْضي في وَحْدةٍ للدَّارِ
أنْتَ في العَيْنِ نَجْمَةٌ تتلألأ ... رَغْمَ بُعْدِ البِلادَ والأمْصَارِ
أنْتَ في القَلْبِ نَبْضَةٌ من حَنينِ ... تُعْلِنُ الحبَّ والهوى لا تُداري
أنتِ ما عشتُ قِبلتي في صلاتي ... كلَّ ليلٍ يمرُّ بي أو نهاري
ليتني في الحِمَى أقَرُّ وأبْقَى ... حيثُ أحْيَا في موطني المختَارِ
أنتِ يا مَكَّةُ الحبيبةُ حُبّي ... أنْتِ ما عِشْتُ عزّتي وفَخَارِي

(١) المراد بأعذب الأنهار بئر زمزم (كوثر الأنهار).

حكاية القط والعصفور .. !!

د. جابر قميحة

كنت في الرابعة من عمري .. مسالماً .. وديعاً .. هادىء الطبع، وكنت موضع عناية الأهل جميعاً وحبهم وتدليلهم، لأنني - كما كانوا يرددون دائماً - «آخر العنقود».. أي آخر الأبناء وأصغرهم. وكنت أسمع أفراد الأسرة كثيراً ما يرددون في ضيق واشمئزاز وغضب:

- القط الأعور ..

- منّه لله

- ربنا ينتقم منّه.

ولم أكن أعرف سر نقمة الأسرة على هذا القط الأعور المسكين إلا عندما رأيته ذات يوم، وهو ينطلق بسرعة مذهلة، وقد أطبق فكيه على «كتكوت» من الكتاكيت التي كانت أُمي مغرمة بتربيتها مع غيرها من الدواجن في حظيرة واسعة فوق سطح المنزل.

وأصبح اسم «القط الأعور» كابوساً مرعباً يقلق مضاجع الجميع. فهو دائم الإغارة على صغار الطيور المنزلية، وما يفعله بدواجننا يفعله كذلك بدواجن الجيران

ولم أتأمل هذا القط إلا مرة واحدة في حياتي: كان اليوم دافئاً، والشمس مشرقة بعد عدة أيام من المطر المتواصل، رأيته متمدداً على سور سطحنا: كان سواده حالكاً شديد الحلكة، ولكن أقبح ما فيه الناحية اليمنى من وجهه، حيث انطمست عينه اليمنى تماماً كأنما ولد بعين واحدة، وفوق منطقة العين المطموسة أثر شجّ قديم يميل إلى اللون الرمادي، وقد خلا من الشعر تماماً.

ولم يطل تأملي أكثر من خمس دقائق، بعدها نهض ببطء، وتثاقُل، وتمطى، ثم قفز إلى سطح الجيران.

***

وذات ليلة، ونحن نتناول طعام العشاء أخذت أمي تتحدث لأبي عن القط الأعور حديثاً طويلاً لم ألتقط أغلبه، ولكني سمعت رد أبي وهو يقول في غضب:

- ليس معقولاً!... في هذه الحالة .. يبقى قَتْلهُ حلالاً.

وعلمت من أمي أن القط الأعور شن صباح اليوم غارة على حظيرة دواجننا فوق السطح، وكان ضحيته سرباً من «البط الأخضر» عدده ثلاثون بطة، ولم يرحم طفولته التي لم تر النور خارج البيض إلا من أسبوع واحد، فالتهم ما التهم، ومات الباقي متأثراً بجراحه، أومن شدة الرعب.

وسمعت أبي يكرر مقولته وهو يغسل يديه بعد أن انتهى من العشاء:

- شرعاً - قَتْلُه حلال.

فأردفت أمي قائلة:

- منه لله ... ربنا ينتقم مه.

- ومن يومها .. وأنا أتمنى أن تواتيني الفرصة للقضاء على القط الأعور، ويكون مصرعه على يديّ، فأنال إعجاب والديّ والأهل جميعاً، وتسري شهرتي بين أطفال الحارة، وربما في المدينة كلها.

ومرت عدة أيام لم يظهر خلالها القط الأعور.. ترى هل أحس بما عزمت عليه، فأخذه الخوف، وغادر الحارة، بل الحي كله؟ ووجدتني أستريح لهذا الخاطر...

وعدت أفكر من جديد: أين ذهب القط الأعور، وهو الذي كنا نراه كل يوم منطلقاً من حظيرتنا وبين فكيه فريسة: بطة خضراء ... كتكوت ... أرنب صغير؟!

وعلى طعام العشاء قال أبي:

- القط الأعور لم يظهر من أسبوع ..

- لعل الله قد انتقم منه.

وظهرت مسحة من الارتياح على وجوه الجميع بعد كلمة أمي الأخيرة.. وأردف أخي الأكبر قائلاً:

- يظهر أن ربنا انتقم منه فعلاً .. أنا رأيت جثة قط أسود يشبهه تماماً ... ملقاة على ناصية حارة أم عبده .. وازدادت أمارات الطمأنينة اتساعاً على الوجوه.

***

ومر أسبوع آخر على غياب القط الأعور.. أسبوعان مضيا، ولم يظهر القط اللعين ... وكان الجميع يشعرون بالراحة والسعادة لانقطاع شره واختفائه عن الأنظار. أما أنا فقد أخذني شعور بخيبة الأمل، لعدم تحقق أمنيتي التي كنت أحرص على تحقيقها بأن يكون مصرع القط الأعور على يديّ.

ثم كان صباح يوم جمعة لا أنساه أبداً ... إذ سمعت صوت أختي الكبرى تناديني من حجرة الضيوف، وفي صوتها

تمنيت أن تواتيني الفرصة لأصرع القط وأتخلص من خوفي

رنة فرح، لأنها استطاعت أن تمسك بعصفور دخل الحجرة خطأ، وهي تقوم بتنظيفها وتنظيمها، وعجز عن الخروج بعد أن أغلقت دونه كل النوافذ الزجاجية: ومدت إليّ يدها بالعصفور:

- هدية مني لك .. مبسوط؟ لكن انتبه له حتى لا يطير منك.

وبقدر فرحي بالعصفور كان خوفي أن يفلت من بين أصابعي ويطير. ولكن كيف ألْهو به وهو لا يفارق يدي بهذا الشكل. وراودتني فكرة سرعان ما نفذتها.. حقاً إنها فكرة رائعة: ربطتُ العصفور من رجله في خيط طوله قرابة متر وخوفاً من أن يفلت الطرف الآخر من يدي.. ربطته في عصا أبي من ناحية يدها المعقوفة، ودخلت غرفة الضيوف، وقد أحكمتْ أختي إغلاق نوافذها الزجاجية، وأمسكت العصا الغليظة من طرفها الآخر، وكدت أطير فرحاً، وأنا أرى عصفوري يطير يمنة ويسرة، وهو مشدود إلى الخيط الذي أحْكمتُ ربطه في العصا. كان الوقت يمضي سريعاً، وأنا في سعادة غامرة، وخصوصاً وأنا أرى العصفور يصطدم بزجاج النوافذ محاولاً الانطلاق إلى الحرية، وهو لا يعرف أن الزجاج يحول دون ما يريد، فلما بلغ به التعب مداه حط على الأرض وهو يرتعش في فزع مكتوم.

وفجأة حدث ما لم يخطر ببالي.. رأيت القط الأعور يدخل الحجرة في سرعة مذهلة، وينقض على عصفوري المتهالك، ويطبق عليه فكيه، ولم يعد في يميني إلا عصا أبي وفي يدها المعقوفة الخيط الذي انفصل عنه عصفوري المسكين.. كل ذلك تم في لمح البصر، وبقدر ما أصبت بالفزع للمفاجأة التي لم أكن أنتظرها، لأنني بل الأسرة كلها كنا نعتقد أن القط الأعور في عالم الأموات من أسبوعين، سرعان ما غمرني شعور قوي بالارتياح ...

- آه هذه فرصتي التي قد لا تتكرر ... القط الأعور سعى إليّ بأرجله .. ليكون مصرعه على يديّ ... وأكون بطلاً في أنظار الجميع ....

وبحركة عفوية ألقيت بكل ثقلي على الباب، وأحكمت إغلاقه من الداخل «بالترباس» ... هأنذا أواجه هذا الأعور الدميم .. ورن في أذني كلمات أبي «هذا القط قتله حلال .. حلال شرعاً» .. وشعرت بقوة غير عادية تسري في بدني، فرفعت العصا، وأهويتُ بها على القط، ولكنه أفلت منها ببراعة، وتخلى عن عصفوري الذي كان جثة هامدة.. وهرب القط إلى الزاوية اليمنى البعيدة من الحجرة ... ووجهت إلى القط ضربة أخرى لم تصب منه إلا قدمه اليسرى الخلفية، فصرخ صرخة غريبة متحشرجة، ووثب إلى إحدى النوافذ، فاصطدم رأسه بالزجاج الذي اعتقد أنه مَخْرَج إلى الشارع لا يمثل عائقاً عن الخروج، وأخذت ألاحقه بضرباتي الشديدة التي كانت تخطئه، وأخذ يقفز في محيط الحجرة.. كان يأتي على محيط الحجرة في قفزتين .. كل قفزة تمثل نصف دائرة .. ثم يسقط على الأرض للحظة واحدة فأهوي عليه بالضربة التي كان يتفاداها بالقفزة الثانية.. تكرر ذلك أكثر من عشر مرات .. وحماستي وقوتي تزداد ... لحظات .. وأحظى بالنصر والبطولة في هذا الصراع.. وأخيراً أصابت عصاي ظهر القط .. وأحسست بالرعب الشديد عندما بدأ يصرخ صرخات هستيرية شديدة ...

وتغير الموقف تماماً .. فقد تحول القط إلى حيوان أسود

غريب السحنة .. أعور العين أكبر من القط أربعة مرات على الأقل ..

.. وبدأ هذا الحيوان يهاجمني .. وأنا أهرب منه في أركان الحجرة وأصرخ مستغيثاً بصوت مخنوق .. ووثبت إلى الباب .. محاولاً فتح الترباس ... ولكن ما كانت يداي المرتعشتان تتمكنان من ذلك .. وسمعت صوت أبي وأمي وأختي الكبرى ... خارج الحجرة...

- افتح الباب ... افتح الباب بسرعة ...

- ما أقدر الحقوني ... القط الأعور سيقتلني.

ودفعوا الباب بشدة .. وانكسر الترباس .. وارتميت على صدر أبي ... وأنا أصرخ ...

- القط الأعور ... القط الأعور.

- أين يا بني ... لا قط ولا شيء.

ونظرنا جميعاً في كل أرجاء الحجرة ... فلم نجد للقط الأعور أي أثر ... ولم نجد أي أثر لعصفوري الشهيد .. لم نجد إلا عصا أبي ملقاة في أحد أركان الحجرة، وفي يدها المعقوفة طرف الخيط.

وأخذت أمي وأختي تهدئان من روعي، وانهالت عليّ قبلاتهما الحانية ... لم يمض على ما حدث أكثر من دقيقتين .. وفجأة اخترق أسماعَنا صوتُ مظاهرة جماعية يأتي من الشارع المقابل .. ويقترب من بيتنا ... وأراد أبي أن ينسيني ما أنا فيه فأخذ بيدي إلى الشرفة الأرضية التي تطل على الشارع ...

- ولا يهمك .. لا تخف يا حبيبي - تعال تفرّج على العيال ... وانظر ماذا يفعلون.

كانت مظاهرة من عشرات الأطفال .. كانوا يهتفون هتافات جماعية منغومة:

- قتلوه ... قتلوه ..
- يستاهل ...
- القط الأعور ...
- يستاهل ..
- ابن الحرمية
- يستاهل ...
- خطّاف الفرخة ...
- يستاهل ..
- قتلوه .. قتلوه ..
- يستاهل ..

وتنفستُ الصعداء .. وقد أمسك طفل بذيل جثمان القط الأعور وقد انتفخ بطنه، وهو يسحبه على الأرض بين تهليل الأطفال وهُتافاتهم ... إنه هو ... هو بعينه العوراء المطموسة ... والشج الرمادي الخالي من الشعر فوقها .. ولكني رأيت فوق عينه السليمة أثر دم متجمد .. الحمد لله فقد استراحت أمي واستراح الجيران من شر هذا اللعين .. وإن جاء مصرعه على يد غيري ... ولكن طفر إلى ذهني سؤال... هل من المعقول أن يقتل القط بهذه السرعة؟ إنه لم يفر من غرفة الضيوف إلا من خمس دقائق فقط، ثم كيف تكونت هذه المظاهرة بهذه السرعة؟ وكيف تورم جثمانه خلال

تجمدت في مكاني عندما تحول القط إلى حيوان غريب أكبر من حجمه مرات!

هذه الدقائق؟.

ولم يقطع تفكيري إلا صوت أبي، وهو يتحدث إلى خالد أكبر الأولاد، وقائد المظاهرة..

- من قتله يا خالد؟

- عم حسن الفران .. قتله بضربة واحدة بحديدة الفرن الساخنة ...

ثم واصل كلامه في شيء من الزهو:

- أنا رأيته وهو يقتله لأنه حاول خطف رغيف من طاولة العيش...

- متى حصل هذا؟.

- أمس ... بعد العشاء .

وندّت مني صرخة مفزوعة، ووقعْتُ مغشياً عليّ.